

المنهج النفسي ووظيفته النقدية في العمل الأدبي

The psychological approach and its critical function in literary work

د/ فاطمة الزهراء نهمار*

تاريخ النشر: 2021/12/30	تاريخ القبول: 2021/08/30	تاريخ الإرسال: 2021/01/28
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

لما كان الأديب في كل ما يُصدر من نشاط أدبي يستوحي من تجاربه العقلية والنفسية، فإنّ الأدب ما هو إلّا مرآة عقل الأديب ونفسيته ، ولا يخلو كل عمل أدبي من صور التعبير عن النفس، لذلك يهدف هذا المقال إلى التعريف بأحد المناهج النقدية للنصوص الأدبية شرحاً وتفصيلاً وأخص بالذكر المنهج النفسي، كونه يتناول العمل الأدبي من بدايته إلى نموه واكتماله من حيث الكشف عن العناصر الشعورية واللاشعورية، فهو يدرس نفسية قائل النص ونفسية النص من خلال قائله ، فيألي أي مدى يمكن لهذا المنهج أن يسبر أغوار النصوص الأدبية ؟ وهل هو كاف وحده لدراستها ؟

الكلمات المفتاحية: المنهج النفسي ، المرجعيات ، الأسس ، المزالق.

Abstract:

Since literature is in every literary activity that is inspired by its mental and psychological experiences, literature is only a mirror of the literary mind and its psyche, and not every literary work is devoid of images of self-expression, so this article aims to introduce in one of the critical approaches of literary texts a detailed explanation In particular, mentioning the psychological approach, as it deals with literary work from its beginning to its growth and completeness in terms of revealing emotional and subconscious elements, as it studies

* مخبر اللغة العربية وآدابها ، جامعة لونيبي علي البليدة 2 ، الجزائر

zahraanahmar@gmail.com

the psyche of the one who says the text and the psyche of the text through his person, so what is the psychological approach? What are the reliable references? What is the basis for it? What pitfalls have occurred?

Key words: *Criticism , critical approach , psychological approach , references , foundations , pitfalls*

مقدمة:

إذا كان العمل الأدبي هو موضوع النقد الأدبي، فإنَّ الحديث عنه هو المقدمة الطبيعية للحديث عن النقد، ف" تحديد العمل الأدبي وغايته وقيمه الشعورية والتعبيرية والكلام عن أدواته وطرائق أدائه وفنونه هي نفسها النقد الأدبي في أخص ميادينه " ¹ ، يعمل النقد الأدبي على " تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية وبيان قيمته الموضوعية، وقيمه التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه في خط سير الأدب، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبي في لغته، وفي العالم الأدبي كله، وقياس مدى تأثيره بالمحيط، وتأثيره فيه، وتصوير سمات صاحبه وخصائصه الشعورية والتعبيرية، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك " ² .

لما كان الأديب في كل ما يُصدر من نشاط أدبي يستوحى من تجاربه العقلية والنفسية، فإنَّ الأدب ما هو إلا مرآة عقل الأديب ونفسيته ، ولا يخلو كل عمل أدبي من صور التعبير عن النفس، لذلك سأتطرق في هذا المقال إلى أحد المناهج النقدية بالشرح والتفصيل ألا وهو المنهج النفسي ، فيألي أي مدى يمكن لهذا المنهج أن يسبر أغوار النصوص الأدبية ؟ وهل هو كاف وحده لدراستها ؟

1 . تعريف المنهج النفسي :

ارتبط مفهوم المنهج النفسي و تطوره في النقد الأدبي بمدرسة عرفت باسم مدرسة التحليل النفسي ، فهو منهج استمد " آلياته من نظرية التحليل النفسي التي أسسها العالم

" سيجموند فرويد " قَسَّر على ضوءها السلوك البشري برده إلى منطقة اللاوعي ، فعلم النفس هو العلم الذي يدرس السلوك العقلي"³.

والمنهج النفسي في أبسط تعريفاته " هو ذلك المنهج الذي يخضع النص الأدبي للبحوث النفسية، ويحاول الانتفاع من النظريات النفسية في تفسير الظواهر الأدبية، والكشف عن عللها وأسبابها ومتابعها الخفية وخيوطها الدقيقة، وما لها من أعماق وأبعاد وآثار ممتدة "⁴.

يقوم المنهج النفسي على قوانين و نظريات التحليل النفسي خصوصا نظرية (فرويد) ، قد اقترن ظهوره بظهور هذه المدارس في الغرب في أواخر القرن التاسع عشر . ومن المعلوم أنّ (فرويد) مؤسس المدرسة وعالمها الأول، قسّم الحياة النفسية إلى قسمين هما: الشعور و اللاشعور ، وهذا الأخير قسّمه إلى ثلاث مستويات : الأنا الأعلى والأنا و الهو ، وبين هذه المستويات يحدث صراع دائم . ولما يصل هذا الصراع إلى الذروة يختل الجهاز العصبي للإنسان⁵.

ويمكن القول بأنّ المنهج النفسي يتناول العمل الأدبي من بدايته إلى نموه واكتماله من حيث الكشف عن العناصر الشعورية واللاشعورية، فهو يدرس نفسية قائل النص ونفسية النص من خلال قائله، فعلى سبيل التمثيل: هل مرّ صاحب النص أو المبدع (سواء كان شاعرا أو كاتباً) بحالة ما أثّرت عليه في إنتاج نصه ؟ كيف هي علاقاته الاجتماعية ؟ وهل المحيط الذي يعيش فيه له تأثير عليه وعلى نصه ؟ وهل فقدانه لشخص ما ينعكس على طبيعة إنتاجه للنص ؟ فالأدب إذن حسب هذا المنهج ما هو إلى تعبير عن حالة شعورية واللاشعورية في صورة أدبية راقية .

2. علم النفس والأدب :

يرى المشتغلون في علم النفس أنّ الإنتاج الأدبي يعود في نسبته الأوفر إلى منطقة اللاشعور والتي غالبا ما تكون في حالة هيجان وانفعال ، وهذه الحالة هي الأنسب للإبداع ، لأن الحياة الإبداعية لا يلائمها الهدوء والاستقرار بقدر ما يخدمها الانفعال ، وحتى تثبت مدرسة التحليل النفسي زعمها هذا وتبرر مقولاتها ، فقد التمست أعظم الأعمال الفنية والأدبية التي اقترن ظهورها بتجربة شعورية قوية و طافحة عاشها المؤلف⁶.

اتخذ " فرويد" من أسماء شخصيات أسطورية أو مسرحية أو أسماء أبطال أعمال ذات صيت عالمي مصطلحات دالة على أمراض نفسية، مثل "عقدة أوديب" و"عقدة النرجسية"، ثم عاد فتمثل هذه الأفكار في تحليل أعمال أدبية أخرى، ففي ضوء عقدة "أوديب" مثلا حلل مسرحية "هاملت" لشكسبير ، ورواية "الإخوة كازمازوف" لدوستوفسكي⁷.

فالعمل الأدبي حسب تفسير فرويد هو " تعبير عن حالة عصابية مرضية ودائمة ، يعاني منها المبدع ، تزيد أحيانا عن حدها ، فتدخل المؤلف في حالة هيجان تسفر في النهاية عن ولادة العمل الذي لن يكون و الحالة هذه إلا نتاجا لغويا ذي مرجعية نفسية خالصة ، وبهذا اعتبر النقاد النفسانيون شخصية المؤلف عنصرا مفتاحيا لا يمكن في غيابها تفسير العمل وإزاحة الغموض عنه"⁸.

لقد سيطر النقد النفسي على حقل الدراسات الأدبية مدة زمنية معينة إذ لعبت " ...الأساطير والأدب في حتمية الاكتشاف التحليلي النفسي دورا كبيرا في بناء واختبار وتسويق النظرية...حيث ينطلق رانك من الصراع الأوديبي ثم يرفض هيمنته مع اكتشاف أهمية البدايات الأولى للحياة النفسية، يقرأ المرء لكي يتحقق أو لكي يتصور، فلا يلبث أن يعثر على شيء آخر .وهذا يعود إلى أن المفاهيم ليست بعد مثبتة ولا مدرجة هرميا :إذ يقدم الأدب أشكالا تخيلية وترميزات وكلمات لحدس سريري لا ي ازل تأنها "⁹.

فالأدب إذن حسب النقد النفسي يفسر على أنه عقدة لدى الكاتب و القارئ معا، وتحتاج إلى نظرة نفسية عميقة لمعرفة انفعالات الإنسان وأحاسيسه. ومن ثمة فأصحاب النقد النفسي يرجعون " ...الغموض في الفن وفي الأحلام والسلوك غير المعقول وغير المقصود إلى منابع كامنة في حاجات المرء ودوافعه اللاواعية، وهي دوافع تنحو نحو التعبير الرمزي الذي يتخذ شكلا غامضا غير مفهوم، حتى من لدن المبدع نفسه. إن للعمل الأدبي والفني لدى أصحاب المنهج النفسي أكثر من معنى .وقد يعثر الناقد من هؤلاء على معنى لم يكن ليدور في خلد صاحب العمل .فليس ثمة علاقة بين قصد المؤلف وصحة تفسير الناقد، ما دام العمل الإبداعي كامنا بطريقة لا واعية في ذهن منشئه" ¹⁰ ، فالناقد النفسي لا يركز فقط على قصد المؤلف في التحليل، بل يكشف ما أراده أيضا ليحلل شخصيته ونفسيته التي تنعكس على نتاجه الأدبي، فهناك ظواهر عامة تكتنزها النفس البشرية، وهناك تعقيدات داخلية لا تظهر بسهولة إلا بالتأمل العميق ومعرفة ناقدة وفاحصة للأنما واللاوعي الإنساني.

3. رواد المنهج النفسي عند العرب والغرب :

يعود الفضل في نشأة منهج التحليل النفسي بالدرجة الأولى إلى العالم النفساني سيجموند فرويد (Sigmund Freud) (١٩٣٩ - ١٨٥٩م) وتلاميذه وأتباعه ، ومع ذلك نجد بعض ملامح النقد النفسي عند النقاد العرب القدامى أمثال : ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، والقاضي الجرجاني (ت ٣٩٣هـ) في كتابه "الوساطة" ، ولعل الملامح النفسية كانت أوضح عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وغيرهم كثيرون ¹¹.

فابن قتيبة مثلا تحدّث عن حالة الشاعر النفسية وأثرها في شعره، وأشار إلى دواعي الشعر التي تحت البطيء وتبعث المتكلف فقال : "وللشعر دواع تحت البطيء وتبعث المتكلف، منها الطمع ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب." ¹² ، كما

أشار إلى الأوقات والأماكن التي تفيض فيها قرائح الشعراء ، وهذا ما يؤكّد وعيه المبكّر بجوانب عملية الإبداع الفني و لحظة الإبداع وما يؤثّر فيها من انفعالات و عواطف¹³ .

يرى أحمد بدوى أنّ العرب قد عرفوا حقيقة ما يسمى بالعاطفة الصادقة والكاذبة ، وأدركوا العاطفة القوية المؤثرة ، كما سجلوا تنوّع العواطف عند بعض الشعراء¹⁴ .

في مطلع العصر الحديث تواترت فيه جهود علماء النفس التحليليين بدءاً بسيجموند فرويد ومروراً بيونج lung وشارل مورون Ch. Mauron وشارل بدوان Ch. Baudouin وألفرد أدلر حتّى نضوج منهج النقد النفسي ، هذه الجهود أفاد منها النقد العربي الحديث إذ ظهرت آثارها جلية في دراسات جماعة الديوان من ذلك دراسة عبد القادر المازني (١٩٤٩ - ١٨٩٠م) لشخصية ابن الرومي دراسة نفسية ، ودراسة عباس محمود العقاد (١٩٦٤ - ١٨٨٩ م) لشخصية أبي نواس، وطه حسين في دراستيه للمتنبي وأبي العلاء المعري ، ومحمد النويهي في دراسته لشخصية أبي نواس¹⁵ .

4. مبادئه وطريقة تعامله مع النصوص الأدبية¹⁶ :

يركّز المنهج النفسي في دراسته للأعمال الأدبية على مجموعة من المبادئ منها:

- ربط النص بالاشعور صاحبه .
- علم النفس يُبرز ويفسّر سيرورة العملية التي تبني الذات وتبني المفهوم.
- الأديب شخص عصابي يحاول أن يعرض رغباته في شكل رمزي مقبول اجتماعياً.
- يسعى التحليل النفسي في العمل الأدبي إلى الكشف عن الأسباب والدوافع الخفية عن المؤلف أو القارئ أو المحلل.
- معاملة الشخصيات في العمل الأدبي على أنّهم أشخاص حقيقيون لهم دوافع ورغبات خفية.

- افتراض وجود بنية نفسية تحتية متجذرة في اللاوعي المبدع تتجلى بشكل رمزي على سطح النص وأثناء التحليل لابدّ من استحضار تلك البنية الباطنية.

عموماً يمكن اختصار طريقة تعاملهم مع النص الأدبي في المنطلقات الآتية¹⁷ :

- إحداهن ربط بين الإنتاج الأدبي و بين التاريخ الشخصي للمؤلف ، فإذا كانت مرحلة الطفولة في رأي النفسانيين هي المرحلة الحاسمة كونها تحدد الخصائص النفسية والعاطفية وحتى بعض الفكرية منها للإنسان بشكل عام ، فإنها عند المبدع أكثر أهمية وتأثيراً لأنها تشكل المرجعية الإبداعية له ، لذلك على النقاد أن يهتموا بطفولة المبدعين بشكل خاص.

- اعتبار النص متنفساً للشعور صاحبه ، وفي هذه الحالة ، فهو يساهم في الكشف عن القوى النفسية اللاشعورية.

- الانطلاق من حقيقة أنّ شخصية المبدع أو الأديب هي شخصية غير سوية وفي الغالب تكون صدامية أو انعزالية تفشل في تحقيق التعايش والتكيف مع ما يحيط بها ، ومن ثمة يدفعها إلى الهروب إلى عالم خيالي تنفّس فيه عن رغباتها ومكبوتاتها.

5. أثر المنهج النفسي في الإبداع الأدبي¹⁸:

- المساعدة في بروز وازدهار المدارس الأدبية والمذاهب كالرومانسية التي توافقت مع الأفكار الفرويدية ، وظهور المدرسة السريالية التي تشدد تحرير الإنسان من قيوده الداخلية كالأخلاق والضمير والعقل واستسلامه التام للخيالات والأحلام والرؤى .

- وعلى مستوى الفن ، ازدهر فن السيرة إذ توافقت النظرات في جعله خطوة مهمة وأساسية لفك مغاليق النص والوصول إلى خفاياه .

- التحفيز على كتابة نصوص ألفها أصحابها خصيصاً ليطبّق عليها هذا المنهج ، لأنّ مجرد إخضاع نص ما لمجهر النقد النفسي يعني نجاحاً استثنائياً لذلك النص .

6 . عيوبه ومزالقه¹⁹:

- التركيز على شخصية المبدع و تهميش النص.
 - المبالغة في الاعتقاد بأهمية اللاشعور في تشكيل النص الأدبي ، وهذا يجعل العملية الإبداعية عملية نفسية لا أثر للفكر والنظر فيها.
 - الاهتمام الكامل بالمضمون وتغيب جماليات النصوص .
 - تجاهل أثر العبقرية الفردية.
 - الاعتماد على مقولات علم النفس في تفسير النصوص .
 - الاعتماد على سيرة الأديب في دراسة أدبه.
 - يعود هذا المنهج إلى عصبية دينية أو مذهبية أو جنسية أو ذوقية فيميل بذلك إلى تفسير الأدب ونقده على أساس ذلك.
- وخلاصة القول فدراسة النصوص الأدبية وتحليلها والكشف عن خباياه الجمالية وسبر أغوارها لا يعتمد فقط على منهج واحد كالنفسى مثلا ، وإنما على كل المناهج النقدية مجتمعة ، فالأدب ليس فقط عقدا نفسية ، أو مرآة للصراع الطبقي فحسب أو بنية لغوية ليس إلا أو زخارف جمالية أو عنصرا من عناصر المقارنة والموازنة ، بل يمكن أن تكون فيه كل هذه الأمور مجتمعة أو في أغلبها.

الهوامش:

- 1 سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، مصر ، ط 8 ، 1424 هـ ، 2003 م ، ص 11
- 2 سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، ص 7
- 3 يوسف وغليسي : مناهج النقد الأدبي ، ط 1 جشور النشر والتوزيع ، الجزائر ، 2007 ، ص 22
- 4 عبد الجواد المحمص : المنهج النفسي في النقد ، دراسة تطبيقية على شعر أبو الوفاء ، مجلة الحرس الوطني ، العدد 16 ، د ت ، ص 87 .
- 5 ينظر : كريمة بورويس : محاضرات النقد الأدبي الحديث ، جامعة محمد الصديق يحي ، جيجل ، 2016 و 1017 ، ص 60
- 6 ينظر : كريمة بورويس : محاضرات النقد الأدبي الحديث ، ص 60 و 61
- 7 ينظر : أحمد حيدوش : الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 22 وما بعدها.
- 8 كريمة بورويس : محاضرات النقد الأدبي الحديث ، ص 61
- 9 مجموعة من الكتاب ، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ، تر : رضوان ظاظا ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1997 ص 70
- 10 صالح الهويدي ، المناهج النقدية الحديثة ، أسئلة ومقاربات ، دار نينوى ، دمشق ، ط 1 ، ص 86
- 11 ينظر : كريمة بورويس : محاضرات النقد الأدبي الحديث ، ص 60 و 61
- 12 ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، دار الحديث ، القاهرة ، ج 1 ، 1423 هـ ، ص 79
- 13 ينظر : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج 1 ، ص من 80 إلى 85
- 14 ينظر : أحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص 503
- 506.
- 15 ينظر : كمال زكي أحمد : النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته ، طبعة مؤسسة كليوباترا ، القاهرة ، 1982 م ، ص 264 و 270 .
- 16 ينظر : سعد البازغي : دليل الناقد الأدبي ، ط 3 ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، د ت ، ص 33
- 17 ينظر : كريمة بورويس : محاضرات النقد الأدبي الحديث ، ص 61 و 62
- 18 ينظر : المرجع نفسه ، ص 62
- 19 ينظر : أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط 10 ، ص 101

